

## ٦٩ - باب استحباب العزلة عند فساد الناس والزمان أو الخوف

من فتنه في الدين ووقوع في حرام وشبهات ونحوها

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: { فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ } [الذاريات: ٥٠].

=====

قوله تعالى ( فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ) .

دعوة من الله لعباده، ليرجعوا إليه، ويُنَبِّئوا إلى سَعَةِ رَحْمَتِهِ وَمَغْفِرَتِهِ، وَمَنْ لَكَ - أَيُّهَا الْإِنْسَانُ - إِلَّا اللَّهُ؟ مَنْ يَنْجِيكَ مِمَّا تَخَافُ إِلَّا اللَّهَ؟ مَنْ يَحَقِّقُ لَكَ آمَالَكَ إِلَّا اللَّهَ؟ ( أَمْ هُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ) .

قال الطبري رحمه الله: يقول تعالى: فاهربوا أيها الناس من عقاب الله إلى رحمته بالإيمان به، واتباع أمره، والعمل بطاعته (إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ) يقول: إني لكم من الله نذير أنذركم عقابه، وأخوفاكم عذابه الذي أحلّه بهؤلاء الأمم الذين قصّ عليكم قصصهم، والذي هو مذيقتهم في الآخرة . وقوله: (مُبِينٌ) يقول: يبين لكم نذارته . انتهى .

وقال ابن كثير رحمه الله : ( ففروا إلى الله ) أي : الجئوا إليه ، واعتمدوا في أموركم عليه .

وقال البغوي رحمه الله : ( ففروا إلى الله ) فاهربوا من عذاب الله إلى ثوابه ، بالإيمان والطاعة . قال ابن عباس : ففروا منه إليه واعملوا بطاعته . وقال سهل بن عبد الله : ففروا مما سوى الله إلى الله .

وقال السعدي رحمه الله : الفرار إليه أي: الفرار مما يكرهه الله ظاهراً وباطناً، إلى ما يحبه، ظاهراً وباطناً، فرار من الجهل إلى العلم، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن المعصية إلى الطاعة، ومن الغفلة إلى ذكر الله فمن استكمل هذه الأمور، فقد استكمل الدين كله وقد زال عنه المهوب، وحصل له، نهاية المراد والمطلوب.

وسمى الله الرجوع إليه، فراراً، لأن في الرجوع لغيره، أنواع المخاوف والمكاره، وفي الرجوع إليه، أنواع المحاب والأمن، والسرور والسعادة والفوز، فيفر العبد من قضائه وقدره، إلى قضائه وقدره، وكل من خفت منه فرت منه إلى الله تعالى، فإنه بحسب الخوف منه، يكون الفرار إليه ( إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ) أي: منذر لكم من عذاب الله، ومخوف بيّن النذارة.

من فوائد الآية :

١- في الآية حثٌّ على الإقبال على الله سبحانه وحده بالكلية، يقول الراغب الأصفهاني: من كان قصده الوصول إلى جوار الله تعالى، فليتوجه نحوه، كما قال تعالى ( فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ) .

٢- وما يُستعان به في الفرار إلى الله تعالى التَّوَكُّلُ، وهو أن يتبرأ الإنسان من حَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ، والالتفات إلى نفسه بين الرضا والتزكية .

٣- وجوب الفرار إلى الله ، بطاعته والإيمان به والتمسك بالكتاب والسنة .

٤- ( فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ) حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، وزِنُوا أَقْوَالَكُمْ وَأَعْمَالَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُوزَنُوا ( وَتُؤْتُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ) ( وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ) .

( فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ) فمهما طال الإمهال، فلا بد من نهاية الآجال، ومهما امتدت الأعمار، فستأتي ساعة الاحتضار، فالיום عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل، والكَيْسُ الْقَطِينُ من دان نفسه، وعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، والعاجز المتواني من اتَّبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وتمتَّى على الله الأمايِّ ( أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ \* ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ \* مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ ) ( إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ \* ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ) .

( فَفَرُّوا إِلَى اللَّهِ ) (فما منكم من أحدٍ إلا سيكلمه ربه، ليس بينه وبينه حجاب ولا تُرْجَمَان، فينظر عن يمينه وعن شماله، فلا يرى إلا ما قَدَّمَ من عمله، وينظر أمامه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشقِّ تمرّة) .

( فَفَرُّوا إِلَى اللَّهِ ) فكل من تخافه تحرب منه بعيداً، إلا الله لا تحرب منه إلا إليه؛ ( اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ ) .

( فَفَرُّوا إِلَى اللَّهِ ) فيها هو يناديكم ( قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ ) وفي الحديث القدسي الصحيح ( يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ، ذكرته في ملأ خيرٍ منهم، وإن تقرب إليّ بشبر تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إليّ ذراعاً تقربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة ) .

تنبيه :

ذكر المؤلف -رحمه الله- الأحاديث الدالة على أن العزلة أفضل من الخلطة إذا خشي الإنسان على دينه، أما إذا لم يخشى على دينه ويتمكن من نفع الناس فالخلطة أفضل كما سيذكر المصنف -رحمه الله- في الباب القادم إن شاء الله .

فأول حديث ذكر -رحمه الله- على فضل العزلة إذا خشي الإنسان على دينه :

٥٩٦ -عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ( قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «مُؤْمِنٌ مُجَاهِدٌ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ رَجُلٌ مُعْتَزِلٌ فِي شَعْبٍ مِنَ الشَّعَابِ يَعْبُدُ رَبَّهُ» ) وفي رواية: «يَتَّقِي اللَّهَ، وَيَدْعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ». متفقٌ عَلَيْهِ.

=====

(أَيُّ النَّاسِ حَيْرٌ) وفي الرواية الأخرى (أفضل) قال القرطبي: أي: أيّ الناس المجاهدين؛ بدليل أنه أجابه بقوله: (رجل مجاهد بنفسه وماله) ثم ذكر بعده من جاهد نفسه بالعزلة عن الناس.

(جَاهِدَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ) أي: يبذل ماله ونفسه لإعلاء كلمة الله.

(وَرَجُلٌ) وفي الرواية الأخرى (ثم رجل معتزل).

(فِي شَعْبٍ مِنَ الشَّعَابِ) الشَّعْبُ: هو ما انفرج بين جبلين.

(يَعْبُدُ رَبَّهُ) وفي رواية (يتقي ربه).

(وَيَدْعُ) أي: يترك.

(النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ) أي: يُبعد عنهم شره.

١- الحديث دليل على فضل العزلة إذا خاف الإنسان على دينه .

فقوله (ثُمَّ رَجُلٌ مُعْتَزِلٌ فِي شَعْبٍ مِنَ الشَّعَابِ يَعْبُدُ رَبَّهُ) فهذا الحديث وأمثاله في مدح العزلة محمول على من خاف على نفسه ودينه، وفي أيام الفتن .

قال الحافظ ابن حجر : وَالْحَبْرُ دَالَ عَلَى فَضِيلَةِ الْعُزْلَةِ لِمَنْ خَافَ عَلَى دِينِهِ. (الفتح)

وقال السندي: فِيهِ أَنَّهُ يَجُوزُ الْعُزْلَةُ بَلْ هِيَ أَفْضَلُ أَيَّامِ الْفِتَنِ. ١. هـ

قال ابن رجب: فإن من خالط الفتن وأهل القتال على الملك، لم يسلم دينه من الإثم، إما بقتل معصوم، أو أخذ مال معصوم، أو المساعدة على ذلك، ونحوه، وكذلك لو غلب على الناس من يدعوهم إلى الدخول في كفر أو معصية حسن الفرار منه. وقال الخطابي: لو لم يكن في العزلة إلا السلامة من الغيبة ومن رؤية المنكر الذي لا يقدر على إزالته لكان ذلك خيراً كثيراً. ٢- وقد اختلف العلماء في الأفضلية العزلة أم الاختلاط مع الناس على قولين :

### القول الأول: العزلة أفضل

أ- لحديث الباب ( مؤمن في شعبٍ من الشعاب يتقي الله ويدعُ الناس من شره ) .  
ب- ولحديث سعد الآتي ( إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ الْعَنِيَّ الْحَفِيَّ ) .  
ج- ولحديث أبي سعيد الآتي ( يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ خَيْرٌ مَالِ الرَّجُلِ الْمُسْلِمِ الْعَنَمُ يَتَّبِعُ بِهَا شَعْفَ الْجَبَالِ وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الْفِتَنِ ) .

القول الثاني: الخلطة أفضل إذا أمن على دينه.

ونسبه الحافظ ابن حجر للجمهور.

لحديث ابن عمر. قال: قال ﷺ (المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من المسلم الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم) رواه ابن ماجه.

قال السندي: الْحَدِيثُ يُدَلُّ عَلَى أَنَّ الْمُخَالَطَ الصَّابِرَ خَيْرٌ مِنَ الْمُعْتَرِلِ. ١. هـ

وقال الصنعاني: فيه أفضلية من يخالط الناس مخالطة يأمرهم فيها بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحسن معاملتهم فإنه أفضل من الذي يعتزلهم ولا يصبر على المخالطة.

ولأن ذلك هو فعل الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - ومن بعدهم من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم من علماء المسلمين وأخبارهم.

قال الحافظ ابن حجر: قال الجمهور الاختلاط أولى لما فيه من اكتساب الفوائد الدينية للقيام بشعائر الإسلام وتكثير سواد المسلمين وإيصال أنواع الخير إليهم من إعانة وإغاثة وعبادة وغير ذلك.

وقال النووي: مذهب الشافعي وأكثر العلماء أن الاختلاط أفضل بشرط رجاء السلامة من الفتن، وأجابوا عن هذا الحديث (مؤمن في شعبٍ من الشعاب يتقي الله ويدعُ الناس من شره) بأنه محمول على الاعتزال في زمن الفتن والحروب، أو هو فيمن لا يسلم الناس منه.

وهذا هو الراجح.

قال النووي: المختار تفضيل المخالطة لمن لا يغلب على ظنه أنه يقع في معصية فإن أشكل الأمر فالعزلة أولى.

قال الحافظ: وهذا حيث لا يكون هناك فتنة عامة، فإن وقعت الفتنة ترجحت العزلة، لما ينشأ فيها غالباً من الوقوع في المحذور، وقد تقع العقوبة بأصحاب الفتنة فتعم من ليس من أهلها، كما قال تعالى (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) ويؤيد التفصيل المذكور حديث أبي سعيد أيضاً (خير الناس رجل جاهد بنفسه وماله ورجل في شعب من الشعاب يعبد ربه ويدع الناس من شره)... (الفتح)

وقال الخطابي: والعزلة عند الفتنة سنة الأنبياء وعصمة الأولياء وسيرة الحكماء الألباء والأولياء، فلا أعلم لمن عابها عذراً لا سيما في هذا الزمان القليل خيره، البكيء (القليل) دُرّه، وباللّه نستعيز من شره وريبه.

وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: العزلة خير إذا كان في الخلطة شر، أما إذا لم يكن في الخلطة شر؛ فالاختلاط بالناس أفضل. وقال أيضاً: من كان يخشى على دينه بالاختلاط بالناس: فالأفضل له العزلة... ومن لا يخشى: فالأفضل أن يخالط الناس، لقول النبي ﷺ (المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على آذاهم خير من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على آذاهم).

٣- فضل الجهاد في سبيل الله... ومن فضائل الجهاد في سبيل الله.

أولاً: أن الروحة في سبيل الله خير من الدنيا بما فيها.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ. عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (لَعْدُوَّةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا) متفق عليه. فائدة: قوله (خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا) قولان:

قيل: فَضْلُ الْعُدُوَّةِ وَالرَّوْحَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَتَوَابِهِمَا خَيْرٌ مِنْ نَعِيمِ الدُّنْيَا كُلِّهَا لَوْ مَلَكَهَا الْإِنْسَانُ، وَتَصَوَّرَ تَنَعُّمَهُ بِهَا كُلِّهَا؛ لِأَنَّهُ زَائِلٌ وَنَعِيمُ الْآخِرَةِ بَاقٍ.

وقيل: أن ثواب العدو والروحة أفضل من الدنيا وما فيها لو ملكها مالك، فأنفقها في وجوه البر والطاعة غير الجهاد.

قال ابن دقيق العيد: والثاني: أن المراد أن هذا القدر من الثواب خير من الثواب الذي يحصل لمن لو حصلت له الدنيا كلها لأنفقها في طاعة الله تعالى.

قلت - ابن حجر - ويؤيد هذا الثاني ما رواه ابن المبارك في كتاب الجهاد من مرسل الحسن قال بعث رسول الله ﷺ جيشاً فيهم عبد الله بن رواحة فتأخر ليشهد الصلاة مع النبي ﷺ، فقال له النبي ﷺ: والذي نفسي بيده لو أنفقت ما في الأرض ما أدركت فضل غدوتهم، والحاصل أن المراد تسهيل أمر الدنيا وتعظيم أمر الجهاد. (الفتح)

ثانياً: أنه من أفضل الأعمال.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سُئِلَ أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ فَقَالَ إِيمَانٌ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ قِيلَ ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قِيلَ ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: حَجٌّ مَبْرُورٌ) متفق عليه.

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ ﷺ قَالَ: (سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ قَالَ إِيمَانٌ بِاللَّهِ وَجِهَادٌ فِي سَبِيلِهِ) متفق عليه.

قال ابن حجر: وفي الحديث أن الجهاد أفضل الأعمال بعد الإيمان.

وعَنْ عَائِشَةَ أُمِّهَا قَالَتْ: (يَا رَسُولَ اللَّهِ نَرَى الْجِهَادَ أَفْضَلَ الْعَمَلِ أَفْلاً مُجَاهِدُ قَالَ: لَا، لَكِنَّ أَفْضَلَ الْجِهَادِ حَجٌّ مَبْرُورٌ). رواه البخاري فالرسول ﷺ في هذا الحديث أقر عائشة على قولها: نرى الجهاد أفضل العمل، ثم بين أن الحج بالنسبة إلى النساء هو أفضل من الجهاد.

ثالثاً: أن المجاهد أفضل الناس.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ. قَالَ (قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مُؤْمِنٌ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ قَالُوا ثُمَّ مَنْ قَالَ مُؤْمِنٌ فِي شَعْبٍ مِنَ الشَّعَابِ يَتَّقِي اللَّهَ وَيَدْعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ) متفق عليه.

رابعاً: الجهاد لا يعدله شيء.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ (قِيلَ لِلنَّبِيِّ ﷺ مَا يَعْدِلُ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ «لَا تَسْتَطِيعُونَهُ» قَالَ فَأَعَادُوا عَلَيْهِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا كُلُّ ذَلِكَ يَثْوُلُ «لَا تَسْتَطِيعُونَهُ» وَقَالَ فِي الثَّلَاثَةِ: مَثَلُ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ الصَّائِمِ الْقَائِمِ الْقَانِتِ بآيَاتِ اللَّهِ لَا يَفْتُرُ مِنْ صِيَامٍ وَلَا صَلَاةٍ حَتَّى يَرْجِعَ الْمُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى) متفق عليه.

ولفظ البخاري: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ يَعْدِلُ الْجِهَادَ قَالَ: لَا أَجِدُهُ قَالَ: هَلْ تَسْتَطِيعُ إِذَا خَرَجَ الْمُجَاهِدُ أَنْ تَدْخُلَ مَسْجِدَكَ فَتَقُومَ، وَلَا تَقْرَأَ وَتَصُومَ، وَلَا تُفْطِرَ قَالَ، وَمَنْ يَسْتَطِيعُ ذَلِكَ).

قال النووي: قَوْلُهُ ﷺ (مِثْلُ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمِثْلِ الصَّائِمِ الْقَائِمِ بِآيَاتِ اللَّهِ ... إِلَى آخِرِهِ) مَعْنَى الْقَائِمِ هُنَا: الْمُطِيعُ. وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ عَظِيمُ فَضْلِ الْجِهَادِ؛ لِأَنَّ الصَّلَاةَ وَالصِّيَامَ وَالْقِيَامَ بِآيَاتِ اللَّهِ أَفْضَلَ الْأَعْمَالِ، وَقَدْ جَعَلَ الْمُجَاهِدَ مِثْلَ مَنْ لَا يَفْتُرُ عَنْ ذَلِكَ فِي لِحْظَةٍ مِنَ اللَّحْظَاتِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا لَا يَتَأْتَى لِأَحَدٍ، وَهَذَا قَالَ ﷺ: "لَا تَسْتَطِيعُونَهُ" وَاللَّهُ أَعْلَمُ. (نَوَوِي) خَامِسًا: لِلْمُجَاهِدِينَ مِائَةَ دَرَجَةٍ فِي الْجَنَّةِ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِئَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

سادسًا: الجهاد سبب للنجاة من النار.

عَنْ أَبِي عُبَيْسٍ. أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (مَا اغْبَرَّتْ قَدَمًا عَبْدٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَمَسَّهُ النَّارُ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

وَفِي لَفْظٍ (مَنْ اغْبَرَّتْ قَدَمَاهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ).

(مَا اغْبَرَّتْ) جَاءَ عِنْدَ أَحْمَدَ (سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ)، (فِي سَبِيلِ اللَّهِ) لَا مِنْ أَجْلِ وَطَنِيَّةٍ أَوْ قَبَلِيَّةٍ أَوْ رِيَاءٍ.

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ: وَفِي ذَلِكَ إِشَارَةٌ إِلَى عَظَمِ قَدْرِ التَّصَرُّفِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَإِذَا كَانَ مَجْرَدَ مَسِّ الْغُبَارِ لِلْقَدَمِ يَحْرِمُ عَلَيْهَا النَّارَ، فَكَيْفَ بِمَنْ سَعَى وَبَدَلَ جِهَدَهُ وَاسْتَنْفَذَ وَسْعَهُ؟.

سابعًا: من أسباب دخول الجنة.

قَالَ تَعَالَى (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُفَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (انْتَدَبَ اللَّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا إِيمَانٌ بِي وَتَصَدِيقٌ بِرُسُلِي أَنْ أُرْجِعَهُ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرِ أَوْ غَنِيمَةٍ، أَوْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَلَوْلَا أَنْ أَشَقُّ عَلَى أُمَّتِي مَا قَعَدْتُ حَلْفَ سَرِيَّةٍ) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُوْفَى. قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (يَا أَيُّهَا النَّاسُ لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ وَاسْأَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَالْمَعْنَى: ... وَالسَّبَبُ الْمَوْصَلُ إِلَى الْجَنَّةِ عِنْدَ الضَّرْبِ بِالسُّيُوفِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمَنْشَى الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَاحْضَرُوا فِيهِ بِصِدْقٍ وَاثْبُتُوا.

وَقَالَ ﷺ (إِنَّ أَبْوَابَ الْجَنَّةِ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ) قَالَ الْعُلَمَاءُ: مَعْنَاهُ: إِنَّ الْجِهَادَ وَحُضُورَ مَعْرَكَةِ الْقِتَالِ طَرِيقٌ إِلَى الْجَنَّةِ وَسَبَبٌ لِدُخُولِهَا.

قال القرطبي: قوله (... الْجَنَّةُ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ) هَذَا الْكَلَامُ مِنَ النَّفِيسِ الْبَدِيعِ الَّذِي جَمَعَ ضُرُوبَ الْبَلَاغَةِ مَعَ جَزَالَةِ الْلَفْظِ وَعَذُوبَتِهِ وَحَسَنِ اسْتِعَارَتِهِ، وَشَمُولِ الْمَعَانِي الْكَثِيرَةِ مَعَ الْأَلْفَاظِ الْمَقْبُولَةِ الْوَجِيزَةِ بِحَيْثُ يَعْجِزُ الْفَصِيحَاءُ اللَّسَنُ الْبَلِغَاءُ عَنِ إِيرَادِ مِثْلِهِ، وَأَنْ يَأْتُوا بِنَظِيرِهِ وَشَكْلِهِ، فَإِنَّهُ اسْتِفِيدَ مِنْهُ مَعَ وَجَازَتِهِ الْحُضُّ عَلَى الْجِهَادِ وَالْإِخْبَارِ بِالنُّوَابِ عَلَيْهِ.

وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال (لا يلج النار رجل بكى من خشية الله، حتى يعود اللبن في الضرع، ولا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ.

ثامنًا: المجاهد يكون الله في عونته.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (ثَلَاثَةٌ حَقَّ عَلَى اللَّهِ عَوْنُهُمُ الْمُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُكَاتِبُ الَّذِي يُرِيدُ الْأَدَاءَ وَالتَّائِبُ الَّذِي يُرِيدُ الْعَفَاةَ) رواه الترمذي.

تاسعاً: الجهاد ذروة سنام الإسلام.

عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ (كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ ... ثُمَّ قَالَ: أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ كُلِّهِ وَعَمُودِهِ وَذُرُوءِ سَنَامِهِ). قُلْتُ بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ وَذُرُوءُهُ سَنَامُهُ الْجِهَادُ) رواه الترمذي.  
ذروة الشيء: أعلاه.

عاشراً: نفى سبحانه التسوية بين المؤمنين المجاهدين وغير المجاهدين.

قال تعالى: (لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا).

الحادي عشر: أن الجهاد سبب لمغفرة الذنوب.

قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنَجِّيْكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ).

٤-الجمع بين التضحية بالمال والنفس، ففيه الحث على البذل الكامل عند الحاجة.

٥-فضل العزلة عند فساد الزمان أو خشية الفتنة، إذا كانت العزلة تعين على عبادة الله وتحفظ الدين، وليست هي الأصل في جميع الأحوال.

٦-أن العبادة الخالصة من أفضل القربات، خاصة إذا أقبل العبد على ربه بإخلاص.

٧-اختلاف أفضل الأعمال باختلاف الأحوال، فقد يكون الجهاد أفضل في موضعه، وتكون العزلة أفضل لمن يخشى على دينه من الفتن ولا يستطيع تغييرها.

٨-مشروعية سؤال أهل العلم عن أفضل الأعمال، ليعمل الإنسان بما يقربه إلى الله.

٩-حرص الصحابة على معرفة مراتب الأعمال، فلم يكتف السائل بمعرفة أفضل الناس، بل سأل: "ثم من؟" وهذا يدل على التنافس في الخير.

١٠-أن التفاضل بين الناس يكون بالتقوى والعمل الصالح، لا بالمال أو النسب أو الجاه.

١١-أن الإيمان الصادق يظهر أثره في العمل، فالنبي ﷺ لم يذكر الإيمان مجرداً، بل قرنه بالجهاد أو بالعبادة.

١٢-أن الأعمال العظيمة تحتاج إلى إخلاص، فالجهاد لا يكون فاضلاً إلا إذا كان في سبيل الله.

١٣-أن حماية الدين مقدمة على مصالح الدنيا، فمن اعتزل الفتن حفظاً لدينه فقد اختار ما هو أعظم.

١٤-أن العبد قد يبلغ منزلة عالية بأعمال خفية، كرجل يعبد الله في مكان بعيد لا يراه الناس، مما يدل على قيمة الإخلاص.

١٥-الحث على محاسبة النفس، فالمؤمن يسأل نفسه: هل أنا نافع للناس؟ وهل سلم الناس من شري؟

١٦-فيه تربية على الزهد في الشهرة، فالرجل المعتزل لا يطلب ثناء الناس ولا مكانتهم، وإنما يقصد رضا الله.

١٧-أن صلاح القلب هو أساس صلاح الظاهر، فمن امتلأ قلبه بالإيمان أقبل على الطاعة وابتعد عن الإضرار بالخلق.

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ ( إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ الْغَنِيَّ الْحَفِيَّ ) رواه مسلم.  
والمُرَادُ بـ «الغني» غِنَى النَّفْسِ، كَمَا سَبَقَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ.

=====

١- قوله ( إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ ) في هذا دليل على فضل التقوى، وأن الله يحب العبد التقى: الذي يفعل المأمورات ويتقي المحظورات.

ففي الحديث فضل التقوى، وأنها سبب لمحبة الله.  
قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ).

وهي سبب لتيسير الأمور.

قال تعالى (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا).  
وسبب لإكرام الله.

قال تعالى (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ).

والعاقبة لأهل التقوى.

قال تعالى (وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ).

والتقوى سبب في دخول الجنة.

قال تعالى (وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ).

وقال تعالى (وَسَارِعُوا إِلَى مَعْفَرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ).  
وهي سبب لتكفير السيئات.

قال تعالى (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفُرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا).

وهي سبب لحصول البشري لهم.

قال تعالى (الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا).

وسبب للفوز والهداية.

قال تعالى (وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ).

وسبب للنجاة يوم القيامة.

قال تعالى (ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًا).

والتقوى سبب لنتيجه البركات من السماء والأرض.

قال تعالى (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْفُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ).

وسبب للخروج من المأزق.

قال تعالى (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ).

وبالتقوى تنال معية الله.

قال تعالى (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ).

٢- قوله ( الغني ) الحديث دليل على فضل الغنى وأن الله يحب الغني.

واختلف في المراد بالغني:

فقبيل: غني المال.

وقبيل: المراد غني النفس، وهو الصحيح.

قال النووي - رحمه الله -: المراد بالغني: غني النفس، هذا هو الغني المحبوب.

لقوله ﷺ (ولكن الغني غني النفس).

ففي الحديث بيان أن الغني: هو غني النفس، وهو الغني المحبوب عند الله.

ففي الصحيحين، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال (ليس الغني عن كثرة العرض، ولكن الغني غني النفس).

فمعنى الحديث: أن الغني الحقيقي ليس عن كثرة متاع الدنيا، لأن كثيراً ممن وسع الله عليه في المال، يكون فقير النفس لا يقنع بما أُعطي، فهو يجتهد دائماً في الزيادة، ولا يبالي من أين يأتيه، فكأنه فقير من المال؛ لشدة شربه وحرصه على الجمع. وأن حقيقة الغني: غني النفس، الذي استغنى صاحبه بالقليل، وقع به، ولم يحرص على الزيادة فيه، ولا ألح في الطلب، فكأنه غني واجد بدأ.

وغني النفس هو باب الرضا بقضاء الله تعالى والتسليم لأمره، علم أن ما عند الله خير للأبرار، وفي قضائه لأوليائه الأخيار. وهذا هو حقيقة الغني؛ الذي هو غني عن الناس، واقتنار واستغناء بحالهم، وعدم الالتفات إلى غيره، ولو لم يملك العبد من الدنيا شيئاً.

قال رسول الله ﷺ لأبي هريرة ﷺ (يا أبا هريرة! كن ورعاً تكن من أعبد الناس، وارض بما قسم الله لك تكن من أغنى الناس).

فالغني المحمود غني النفس، وشبعها، وقله حرصها؛ لا كثرة المال مع الحرص على الزيادة؛ لأن من كان طالباً للزيادة، لم يستغن بما معه؛ فليس له غني.

وقد قال ﷺ (يا أبا ذر! أترى كثرة المال هو الغني؟ قلت: نعم يا رسول الله! قال: فترى قلة المال هو الفقر؟ قلت: نعم يا رسول الله! قال: إنما الغني غني القلب، والفقر فقر القلب).

وقد كان ﷺ يقول (اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى).

وفي هذا فضل القناعة والاستعفاف عن الناس.

وقد قال ﷺ (قد أفلح من أسلم، ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه).

وعن فضالة بن عبيد. قال: قال رسول الله ﷺ (طوبى لمن هدى للإسلام، وكان عيشه كفافاً وقنع) رواه الترمذي.

وقال تعالى (من عمل صالحاً من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمن فلنجيناه حياة طيبة).

فسر الحياة الطيبة عليّ وابن عباس والحسن ﷺ فقالوا: الحياة الطيبة هي القناعة.

وفي هذا المعنى قال ابن الجوزي: من قنع طاب عيشه، ومن طمع طال طيشه.

وقال أحد الحكماء: أنت أخو العز ما التحفت بالقناعة.

وقال بعض الحكماء: وجدت أطول الناس غماً الحسود، وأهنأهم عيشاً القنوع.

وكلما كملت عبودية المسلم كلما استغنى عن الناس.

٣- قوله ( الحفي ) قال ابن الأثير - رحمه الله -: الحفي هو المعتزل عن الناس، الذي يخفي عليهم مكانه.

وقال النووي - رحمه الله -: وأما الحفي فبالحاء المعجمة، الخامل المنقطع إلى العبادة، والاشتغال بأمور نفسه.

وقال ابن الجوزي رحمه الله: الإشارة بالخفي إلى خمول الذكر، والغالب على الخامل السلامة .

وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: الخفي: هو الذي لا يظهر نفسه، ولا يهتم أن يظهر عند الناس أو يشار إليه بالبنان أو يتحدث الناس عنه، تجده من بيته إلى المسجد، ومن مسجده إلى بيته، ومن بيته إلى أقاربه وإخوانه، يخفي نفسه.

ففي هذا: فضل الخمول، وعدم الظهور بين الناس، ولا سيّما في أيام الفتنة.

فطلب الشهرة مذموم بكل حال، والمؤمن محبت متواضع، لا يجب أن يشار إليه بالأصابع، ومن أعظم ما يفسد على المرء سعيه إلى ربه: حبه للشهرة، والشرف في الناس، والرئاسة عليهم.

روى الترمذي عن كعب بن مالك قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (مَا ذُئِبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلَا فِي غَنَمٍ بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: فَبَيَّنَ ﷺ أَنَّ الْحِرْصَ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ فِي فَسَادِ الدِّينِ لَا يَنْقُصُ عَنْ فَسَادِ الدُّبُوبِ الْجَائِعِينَ لِزُرْبَةِ الْغَنَمِ وَذَلِكَ بَيِّنٌ؛ فَإِنَّ الدِّينَ السَّلِيمَ لَا يَكُونُ فِيهِ هَذَا الْحِرْصُ وَذَلِكَ أَنَّ الْقَلْبَ إِذَا ذَاقَ حَلَاوَةَ عُبُودِيَّتِهِ لِلَّهِ وَحُبَّيْتِهِ لَهُ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى يُقَدِّمَهُ عَلَيْهِ وَبِذَلِكَ يُصْرَفُ عَنْ أَهْلِ الْإِحْلَاصِ لِلَّهِ السُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ. (الفتاوى)

وهذه المحبة للشرف والشهرة هي من الأمراض الخفية في النفوس، ومهلكات القلب التي لا يكاد يتفطن إليها العبد إلا بعد أن تمضي به شوطاً بعيداً، يشق عليه استدراكه، وإصلاح ما أفسدته منه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: كَثِيرًا مَا يُجَالِطُ النُّفُوسَ مِنَ الشَّهَوَاتِ الْخَفِيَّةِ مَا يُفْسِدُ عَلَيْهَا تَحْقِيقَ حُبِّيَّتِهَا لِلَّهِ وَعُبُودِيَّتِهَا لَهُ وَإِحْلَاصِ دِينِهَا لَهُ كَمَا قَالَ شَدَّادُ بْنُ أَوْسٍ: يَا بَقَايَا الْعَرَبِ إِنَّ أَحْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الرِّيَاءَ وَالشَّهْوَةَ الْخَفِيَّةَ، قِيلَ لِأَبِي دَاوُدَ السَّجِسْتَانِيِّ: وَمَا الشَّهْوَةُ الْخَفِيَّةُ؟ قَالَ: حُبُّ الرِّيَاسَةِ. (مجموع الفتاوى)

قال إبراهيم بن أدهم: ما صدق الله عبد أحب الشهرة.

قال إبراهيم النخعي والحسن البصري: كفى فتنة للمرء أن يشار إليه بالأصابع في دين أو دنيا إلا من عصمه الله.

وقال ابن الجوزي رحمه الله: والغالب على الخامل السلامة.

قال الإمام الغزالي رحمه الله: اعلم -أصلحك الله- أن أصل الجاه هو انتشار الصيت والاشتهار، وهو مذموم، إلا من شهره الله تعالى لنشر دينه من غير تكلف طلب الشهرة منه، فالمدموم طلب الشهرة، فأما وجودها من جهة الله سبحانه من غير تكلف من العبد فليس بمذموم.

وقال بشر بن الحارث الحافي: ما أعلم أحداً أحب أن يُعرف إلا ذهب دينه وافتضح.

وقال هبة الله بن سعد بن طاهر الطبري رحمه الله: الشهرة آفة وكلُّ يتحرَّأها، والحمول راحة وكلُّ يتوقَّأها.

وقال أيوب السخيتاني رحمه الله: والله ما صدق الله عبدٌ إلا سرَّه ألا يشعر بمكانه.

وقال بشر بن الحارث رحمه الله: ما اتقى الله من أحبَّ الشهرة، لا تعمل لتذكر.

وقال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: طوبى لمن أحمل الله ذكره.

وقال ابن المبارك: قال لي سفيان -رحمهما الله-: إياك والشهرة، فما أتيت أحداً إلا وقد نهي عن الشهرة.

وقال أبو حازم المدني رحمه الله: اكتم حسناتك كما تكتم سيئاتك.

وقال رجل لبشر بن الحارث: أوصني، فقال: أحمل ذكرك، وطيب مطعمك.

٤- ذكر المؤلف -رحمه الله- هذا الحديث ليبين أن العزلة تكون أفضل إذا خشي الإنسان على دينه، وأما إذا لم يخشى على دينه فالاختلاط بالناس ونفعهم أفضل ، كما سيذكر المؤلف -رحمه الله- في الباب القادم .

٥٩٨ - وعنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ( يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ الْمُسْلِمِ عِنَّمَا يَتَّبِعُ بِهَا شَعْفَ الْجِبَالِ، وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الْفِتَنِ ) رواه البخاري.

و «شَعْفُ الْجِبَالِ»: أَعْلَاهَا.

=====

(يوشك) أي يقرب.

(غنم) إن قيل: لماذا قيد المال بالغنم؟ الجواب: بأن هذا النوع من المال، نموه وزيادته أبعد من الشوائب المحرمة كالربا والشبهات المكروهة، وخصت الغنم بذلك لما فيها من السكينة والبركة، وقد رعاها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، مع أنها سهلة الانقياد، خفيفة المؤنة، كثيرة النفع.

(شعف الجبال) أي: رؤوس الجبال، وشعفة كل شيء أعلاه.

(مواقع القطر) أي: موضع نزول المطر، كبطون الأودية، وخصها بالذكر لأنها مكان الرعي.

فإن قيل: لماذا قيد الاتباع بشعف الجبال، ومواقع القطر؟ الجواب: بأنها أسلم غالباً من المعادات المؤدية إلى الكدورات.

(يفر بدينه) أي بسبب دينه خوفاً على دينه وطلباً لسلامة رأس ماله (لأن الدين هو رأس المال) وقيل: للمصاحبة كما في قوله تعالى (اهبط بسلام منا) أي يفر مصحباً دينه.

(من الفتن) أي الفرار سببه ومنشأه الفتن. لا لغرض دنيوي، والفتن جمع فتنة والأصل فيها الاختبار والابتلاء.

١ - أن فرار الإنسان بدينه من الفتن من الإيمان.

وقد مدح الله من فر بدينه:

قال تعالى (وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ).

وقال تعالى (قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَعْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا. وَأَعْتَزَلْتُمْوهُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا).

وقال ﷺ (من سمع بالدجال فليأمن عنه) رواه أبو داود.

وكان أول من اعتزل إبراهيم عليه السلام، قال الله تعالى (وأعتزلكم وما تدعون من دون الله) فاعتزلهم لما يئس منهم وخاف على نفسه.

وقال تعالى حاكياً قصة أصحاب الكهف: (وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ).

قال ابن كثير: وهذا هو المشروع عند وقوع الفتن

قال الإمام الخطابي: إنَّ العزلة يجب أن تكون تابعة للحاجة وجارية مع المصلحة.

يقول الإمام علي القاري: والمختار هو التوسط بين العزلة عن أكثر الناس وعوامهم، والخلطة بالصالحين، والاجتماع مع عانتهم في نحو جمعهم وجماعاتهم .

ولا تصلح العزلة لعامة الناس بابتعادهم عن الناس وعن أهل العلم منهم خاصة لأنهم لا يقوون على مقاومة الشيطان لأنه يأكل من القاصية ..

- لذا قال الخطابي: فالعزلة إنما تنفع العلماء العقلاء، وهي من أضرَّ شيء على الجهال.

وقال ابن الجوزي: ولكن لا يصح هذا إلا للعالم فإنه إذا اعتزل الجاهل فاته العلم فتخبط.  
وقال الربيع بن خثيم: تفقه ثم اعتزل.

٢- استدل بحديث الباب من قال بفضل العزلة على الاختلاط بالناس، وقد تقدمت المسألة، وأن هذه الأحاديث الدالة على فضل العزلة محمولة على من خاف على دينه، وفي أيام الفتن التي لا يعرف فيها الحق من الباطل .  
وفي هذا الزمن : كثرت الفتن وتنوعت وقل الحياء وكثرت المجالس التي يجتمع فيها الناس على الملاهي والأغاني والمجون وغيرها، فالأولى للمسلم أن يعتزلها حتى لا يفتن بها، كما فتن الكثير، وأيضاً يسلم من الغيبة والنميمة وغيرها من الكلام الذي لا فائدة منه. والله المستعان.

كان داود الطائي من كبار أئمة الفقه والرأي، برع في العلم ثم أقبل على شأنه ولزم الصمت وآثر الخمول وفر بدينه.  
كان الثوري يعظمه ويقول: أبصر داود أمره.

قال عبد الله بن داود: من أمكن الناس من كل ما يريدون أضروا بدينه وديناه.

وقال أحمد بن حنبل: أشتهي ما لا يكون، أشتهي مكاناً لا يكون فيه أحد من الناس.

وقال سعيد بن الحداد: لا تعدلن بالوحدة شيئاً، فقد صار الناس ذئاباً.

وقال سفيان الثوري: كان طاووس يجلس في بيته، فقيل له في ذلك، فقال: حيف الأئمة، وفساد الناس.

وعن عبد الله - بن أحمد بن حنبل - قال: كان أبي أصبر الناس على الوحدة، لم يره أحد إلا في مسجد أو حضور جنازة، أو عيادة مريض، وكان يكره المشي في الأسواق.

قال الإمام الخطابي: إنَّ العزلة يجب أن تكون تابعة للحاجة وجارية مع المصلحة.

يقول الإمام علي القاري: والمختار هو التوسُّط بين العزلة عن أكثر النَّاس وعوامهم، والخلطة بالصالحين، والاجتماع مع عاقتهم في نحو جمعهم وجماعاتهم .

ولا تصلح العزلة لعامة النَّاس بابتعادهم عن النَّاس وعن أهل العلم منهم خاصة لأنهم لا يقوون على مقاومة الشيطان لأنه يأكل من القاصية ..

لذا قال الخطابي: فالعزلة إنما تنفع العلماء العقلاء، وهي من أضرَّ شيء على الجهَّال.

وقال ابن الجوزي: ولكن لا يصح هذا إلا للعالم فإنه إذا اعتزل الجاهل فاته العلم فتخبط.

وقال الربيع بن خثيم: تفقه ثم اعتزل.

٣ - أن أعظم ما يُحافظ عليه هو الدين.

٤ - إثبات الفتن وكثرتها وقدموها، وقد أخبر النبي ﷺ بذلك:

فقال ﷺ (بادروا بالأعمال الصالحة فتناً كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمناً، ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً يبيع دينه بعرض من الدنيا) رواه مسلم.

وعن أسامة بن زيد قال (أشرف النبي ﷺ على أطم من أطام المدينة، فقال: هل ترون ما أرى؟ إني لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر) رواه البخاري.

أشرف: نظر وطلع. الأطم: حصن مبني بالحجارة.

وقال ﷺ (ستكون فتن، القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، من تشرف لها تستشرفه، ومن وجد فيها ملجأً فليعد به) رواه مسلم.

وقال ﷺ (إنها ستكون فتن) رواه مسلم. وقال ﷺ (لا تقوم الساعة حتى يقبض وتظهر الفتن) رواه البخاري.

٥- وجوب اعتزال الفتن والابتعاد عنها، وقد جاءت الأدلة التي تدل على ذلك:

أ- كما في حديث الباب ( ... يَفْرُ بِدِينِهِ مِنَ الْفِتَنِ ) .

ب- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (سَتَكُونُ فِتْنٌ، الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ، وَالْقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي، وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي، وَمَنْ يُشْرِفْ لَهَا تَسْتَشْرِفُهُ، وَمَنْ وَجَدَ مَلْجَأً أَوْ مَعَاذًا فَلْيَعُدْ بِهِ) متفق عليه.

ج- عَنِ الْمُقَدَّادِ بْنِ الْأَسْوَدِ، قَالَ: أَيْمُ اللَّهِ، لَقَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ (إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِبَ الْفِتْنُ، إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِبَ الْفِتْنُ، إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِبَ الْفِتْنُ، إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِبَ الْفِتْنُ، وَلَمَنْ ابْتُلِيَ فَصَبَرَ فَوَاهَا) رواه أبو داود.

د- وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قَالَ (بَيْنَمَا نَحْنُ حَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ ذَكَرَ الْفِتْنَةَ، فَقَالَ: إِذَا رَأَيْتُمُ النَّاسَ قَدْ مَرَجَتْ عُهُودُهُمْ، وَخَفَّتْ أَمَانَاتُهُمْ، وَكَانُوا هَكَذَا وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ، قَالَ: فَفُئِمْتُ إِلَيْهِ، فُفُئِمْتُ: كَيْفَ أَفْعَلُ عِنْدَ ذَلِكَ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ؟ قَالَ: الزُّمُ بَيْنَتِكَ، وَأَمْلِكُ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَخُذْ بِمَا تَعْرِفُ، وَدَعْ مَا تُنْكِرُ، وَعَلَيْكَ بِأَمْرِ حَاصَّةِ نَفْسِكَ، وَدَعْ عَنكَ أَمْرَ الْعَامَّةِ). رواه

أبو داود

٦ - أهمية الهجرة في سبيل الله ولو كان فيها مشقة.

٧ - فضل العزلة إذا خاف الإنسان على دينه.

قال ابن رجب: فإن من خالط الفتن وأهل القتال على الملك، لم يسلم دينه من الإثم، إما بقتل معصوم، أو أخذ مال معصوم، أو المساعدة على ذلك، ونحوه، وكذلك لو غلب على الناس من يدعوهم إلى الدخول في كفر أو معصية حسن الفرار منه.

٨ - قوله ﷺ (يوشك ..) تقريب للفتنة .

قال ابن رجب: وقد وقع ذلك في زمن عثمان، كما أخبر به ﷺ ، وهذا من جملة أعلام نبوته ﷺ ، وقد اعتزل جماعة من الصحابة كسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد، فأحكما لزما منزلهما بالعقيق حتى لحقا بالله.

٩ - وجوب الاستعداد للفتن بما يعصم منها، فإن النبي ﷺ أخبر بذلك ولا بد من وقوعه.

١٠ - قوله (غنم يتبع بها ..) هذا بناء على الأغلب، وإلا لو جلس في بيته لكان مصيباً، بدليل حديث حذيفة في الفتن (قال

ﷺ تلزم جماعة المسلمين وإمامهم، قلت: إن لم يكن لهم إمام ولا جماعة؟ قال: تجلس في بيتك ولو أن تعض على أصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك).

١١ - قوله (غنم ...) خص بالذكر لأمر: لأنها أقل تكلفاً من غيرها - ولما فيها من البركة - ولأنها أهدأ من غيرها فلا تتعب - ولتيسر الحصول عليها.

١٢ - الحكمة من الفتن: فهي اختبار للإيمان ، واختبار للبصيرة، واختبار للتقوى، واختبار للعلم.

١٣ - مشروعية فعل الأسباب.

١٤ - جواز ادخار المال وقد قال ﷺ (نعم المال الصالح للرجل الصالح) رواه أحمد.

١٥ - اتخاذ المال وخاصة الغنم ليركتها كما في الحديث.

١٦ - الإشارة إلى الفتن في آخر الزمان.

٥٩٩ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قَالَ: «مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الْغَنَمَ» فَقَالَ أَصْحَابُهُ: وَأَنْتَ؟ قَالَ: «نَعَمْ، كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطٍ لِأَهْلِ مَكَّةَ». رواه البخاري.

=====

( على قراريط ) جمع قيراط، وأصله: قيراط، فقلبت الراء الأولى ياء؛ يعني: استأجرتني أهل مكة على رعي الغنم كل يوم بقيراط

قال الكوراني - رحمه الله - ( كنت أرى على قراريط لأهل مكة ) قال ابن الحربي: القراريط موضع بمكة، وقيل: قائله: أبو عبيد قاسم بن سلام، وهذا الذي قاله ينكره أهل مكة، ولا يعرفون بمكة وما حولها موضعاً يسمى بذلك الاسم، ولا وُجد في كتب اللغة ذكره، والصواب: أن المراد أخذ الأجرة على ما فهم البخاري وغيره، وفي رواية ابن ماجه: بالقراريط .

١- بيان تربية الله لأتباعه، وإعدادهم لتحمل الرسالات .

٢- تواضع النبي ﷺ لربه، والتصريح بمنته عليه وعلى إخوانه من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء .

٣- أن رعي الغنم من سنن الأنبياء .

٤- الحكمة في رعي الأنبياء للغنم .

ذكر العلماء -رحمهم الله- أن الحكمة من رعي الغنم خاصة أنها تجمع للرعي صفات الرفق والصبر والتأني، وهي من أهم الصفات التي يحتاجها من يتولى هداية الناس وتعليمهم ( ليتمروا بذلك على سياسة الأمم ) .

قال ابن بطال - رحمه الله - ( ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم ) ذلك توطئة وتقدمة في تعريفه سياسة العباد، واعتباراً بأحوال رعاة الغنم، وما يجب على راعيها من اختيار الكلاء لها، وإيرادها أفضل مواردها، واختيار المسرح والمراح لها، وجبر كسيرها، والرفق بضعيفها، ومعرفة أعيانها، وحسن تعهدها، فإذا وقف على هذه الأمور كانت مثلاً لرعاية العباد، وهذه حكمة بالغة .

وقال أبو العباس القرطبي - رحمه الله - إن الله تعالى درّب الأنبياء على رعاية الغنم، وسياستها؛ ليكون ذلك تدريباً إلى سياسة الأمم؛ إذ الراعي يقصد مصلحة الغنم، ويحملها على مرادها، ويقوم بكلفها وسياستها، ومن تدرّب على هذا وأحكمه كان متمكناً من سياسة الخلق ورحمتهم، والرفق بهم .

وقال النووي - رحمه الله - قالوا: والحكمة في رعاية الأنبياء -صلوات الله وسلامه عليهم- لها؛ ليأخذوا أنفسهم بالتواضع، وتصفى قلوبهم بالخلوّة، ويتزوّدوا من سياستها بالنصيحة إلى سياسة أممهم بالهداية والشفقة، والله أعلم .

وقال ابن حجر - رحمه الله - قال العلماء: الحكمة في إلهام الأنبياء من رعي الغنم قبل النبوة، أن يحصل لهم التمرّن برعيها على ما يكلفونه من القيام بأمر أمّتهم؛ ولأن في مخالطتها ما يحصل لهم الحلم والشفقة؛ لأنهم إذا صبروا على رعيها، وجمعها بعد تفرقها في المرعى، ونقلها من مسرح إلى مسرح، ودفع عدوّها من سبيح وغيره كالسارق، وعلموا اختلاف طباعها، وشدة تفرقها مع ضعفها واحتياجها إلى المعاهدة، ألقوا من ذلك الصبر على الأمة، وعرفوا اختلاف طباعها، وتفاوت عقولها، فجبروا كسرهما، ورفقوا بضعيفها، وأحسنوا التعاهد لها، فيكون تحملهم لمشقة ذلك أسهل مما لو كلفوا القيام بذلك من أول وهلة؛ لما يحصل لهم من التدريب على ذلك برعي الغنم .

وقال المظهري - رحمه الله - قوله ( ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم... ) فإذا صبروا على مشقة رعي الغنم، وأعلموا اختلاف طباع كل فرد من الغنم ... علموا أن مخالطة العوام من الناس كمخالطة الغنم في اختلاف طباعهم، وقلة عقول بعضهم، ولحوق المشقة من الأمة إليهم، فلا تنفر طباعهم، ولا تملّ نفوسهم من دعوتهم إلى الدين؛ لأنهم اعتادوا تحمّل الضرر والمشقة.

وقال الكوراني -رحمه الله-: فإن قلت: ما الحكمة في أن الله استعملهم في ذلك العمل؟

قلت: لأن فيه تحمل المشاق، ورياضة النفس، والدلالة على الماء والعلف الذي فيه حياة هذه الدار؛ ليكون مقدمة لدلالة ما به الحياة الأبدية من الإيمان والطاعات، وخصوصية الغنم؛ لأن في أخلاقها السهولة، وفي لفظها تفاعل بالغنيمة؛ ألا ترى أن رؤيتها في المنام تدل على حسن حال الرائي.

٥- قال العيني -رحمه الله-: فإن قلت ... ما وجه تخصيص الغنم فيه؟

قلت: لأنها أضعف من غيرها وأسرع انقيادًا وهي من دواب الجنة.

فإن قلت: ما الحكمة في ذكره ﷺ ذلك؟

قلت: إظهار تواضعه لربه مع كونه أكرم الخلق عليه، وتنبية أمته على ملازمة التواضع واجتناب الكبر، ولو بلغ أقصى المنازل الدنيوية، وفيه أيضًا اتباع لأخوته من الرسل الذين رعوا الغنم .

٦- رعى النبي ﷺ الغنم في صغره في بادية بني سعد، وفي فتوته بأجباد في مكة على قراريط، وهو أجر زهيد يتكسب به ويعف نفسه، ثم عمل ﷺ بالتجارة في شبابه، ومع أن الله عز وجل قادر على أن يغني نبيه ﷺ عن رعي الغنم، ومن اليسير أن يهيئ له وهو في صدر حياته من أسباب الرفاهية ووسائل العيش ما يغنيه عن الكدح ورعاية الأغنام سعيًا وراء الرزق، إلا أن الله تعالى يعلمنا أن خير مال الإنسان ما اكتسبه بسعيه وعمله، وكذلك يرشدنا النبي ﷺ إلى ذلك بعمله . رعيه للغنم ثم بعد ذلك عمله بالتجارة .، ويرشدنا بقوله. عن المقدم رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده) رواه البخاري.

٧- فضل الاعتماد على النفس .

٨- إظهار بشرية الأنبياء .

٩- يستحب للعبد أن يتكسب ويطلب الرزق وإن قل، ففيه البركة لمن قنع، ويجب أن يتحرى في ذلك أن يكون حلالًا .

١٠- الإشارة على أن الرجال لا يقعدون عالة على الناس، بل يعملون ليأكلوا من عمل أيديهم، فالأنبياء يعملون في رعي الغنم ليكتسبوا مالًا يعيشون منه، ولم يجلسوا متواكلين عالة على القوم.

٦٠٠ - وعنه، عن رسول الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ ( مِنْ خَيْرِ مَعَاشِ النَّاسِ لَهُمْ رَجُلٌ مُمْسِكٌ عِنَانَ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، يَطِيرُ عَلَى مَتْنِهِ كُلَّمَا سَمِعَ هَيْعَةً أَوْ فَرَعَةً، طَارَ عَلَيْهِ يَبْتَغِي الْقَتْلَ، أَوْ الْمَوْتَ مَطَانَهُ، أَوْ رَجُلٌ فِي غَنِيمَةٍ فِي رَأْسِ شَعْفَةٍ مِنْ هَذِهِ الشَّعَفِ، أَوْ بَطْنِ وَادٍ مِنْ هَذِهِ الْأَوْدِيَةِ، يُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَيُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَيَعْبُدُ رَبَّهُ حَتَّى يَأْتِيَهُ الْيَقِينُ، لَيْسَ مِنَ النَّاسِ إِلَّا فِي خَيْرٍ) رواه مسلم.

«يَطِيرُ»: أي يُسْرِعُ. وَ «مَتْنُهُ»: ظَهْرُهُ. وَ «الْهَيْعَةُ»: الصَّوْتُ لِلْحَرْبِ. وَ «الْفَرَعَةُ»: نَحْوُهُ. وَ «مَطَانُ الشَّيْءِ»: الْمَوَاضِعُ الَّتِي يُظَنُّ وَجُودُهُ فِيهَا. وَ «الْغَنِيمَةُ»: بَضْمُ الْغَيْنِ: تَصْغِيرُ الْغَنَمِ. وَ «الشَّعْفَةُ»: بَفَتْحِ الشَّيْنِ وَالْعَيْنِ: هِيَ أَعْلَى الْجَبَلِ.

=====

( مِنْ خَيْرِ مَعَاشِ النَّاسِ لَهُمْ ) الْمَعَاشُ : هُوَ الْعَيْشُ ، وَهُوَ الْحَيَاةُ ، وَتَقْدِيرُهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ : مِنْ خَيْرِ أَحْوَالِ عَيْشِهِمْ رَجُلٌ مُمْسِكٌ .  
( يَطِيرُ عَلَى مَتْنِهِ كُلَّمَا سَمِعَ هَيْعَةً أَوْ فَرَعَةً، طَارَ عَلَيْهِ يَبْتَغِي الْقَتْلَ، أَوْ الْمَوْتَ مَطَانَهُ ) مَعْنَاهُ يُسَارِعُ عَلَى ظَهْرِهِ، وَهُوَ: مَتْنُهُ، كُلَّمَا سَمِعَ هَيْعَةً، وَهِيَ: الصَّوْتُ عِنْدَ حُضُورِ الْعَدُوِّ، وَهِيَ بَفَتْحِ الْهَاءِ وَإِسْكَانِ الْيَاءِ، (الْفَرَعَةُ) بِإِسْكَانِ الرَّايِ وَهِيَ: النَّهُوضُ إِلَى الْعَدُوِّ .  
( أَوْ رَجُلٌ فِي غَنِيمَةٍ فِي رَأْسِ شَعْفَةٍ ) الْغَنِيمَةُ: بَضْمُ الْغَيْنِ تَصْغِيرُ الْغَنَمِ، أَي: قِطْعَةٌ مِنْهَا، وَ الشَّعْفَةُ ( الشَّيْنِ وَالْعَيْنِ ): أَعْلَى الْجَبَلِ.

١- لحديث دليل على فضل الجهاد في سبيل الله وقد تقدمت فضائله .

٢- الحديث دليل على فضيلة اعتزال الناس عند وقوع الفتنة ، وقد تقدم أن هذه الأحاديث محمولة على من خاف على دينه ، أو عند وقوع الفتن والافتتال للدنيا .

٣- أهمية الصلاة والزكاة، وعدم تركهما.

٤- أنه لا يعيش الذئ ولا أشهى ولا أهنأ مما يجد العبد من طاعة ربه، ويستروح إليها حتى يرفع تكاليفها ومشاقها عنه، بل إذا فقدتها كان أصعب عليه مما إذا فقد أهلته وماله .

٧٠ - باب فضل الاختلاط بالناس وحضور جمعهم وجماعاتهم، ومشاهد الخير، ومجالس الذكر معهم، وعبادة مريضهم،

وحضور جنازتهم، ومواساة محتاجهم، وإرشاد جاهلهم، وغير ذلك من مصالحهم لمن قدر على الأمر بالمعروف والنهي عن

المنكر، وقمع نفسه عن الإيذاء وصبر على الأذى .

اعلم أن الاختلاط بالناس على الوجه الذي ذكرته هو المختار الذي كان عليه رسول الله ﷺ وسائر الأنبياء صلوات الله

وسلامه عليهم، وكذلك الخلفاء الراشدون، ومن بعدهم من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم من علماء المسلمين وأخبارهم،

وهو مذهب أكثر التابعين ومن بعدهم، وبه قال الشافعي وأحمد وأكثر الفقهاء أجمعين.

قال الله تعالى ( وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ) والآيات في معنى ما ذكرته كثيرة معلومة.

=====

ذكر المصنف -رحمه الله- القول الراجح في التفضيل بين العزلة والخلطة بين الناس .

وقد تقدم أن العزلة تكون أفضل إذا خاف الإنسان على دينه أو في وقت الفتن والافتتال على الدنيا .

وعليه تحمل الأحاديث التي سبقت في الباب السابق :

كحديث ( ... ثُمَّ رَجُلٌ مُعْتَزِلٌ فِي شَعْبٍ مِنْ الشَّعَابِ يَعْبُدُ رَبَّهُ ) .

وحديث ( يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ الْمُسْلِمِ عِنَّمَا يَتَّبِعُ بِهَا شَعْفَ الْجِبَالِ، وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ يَفْرُ بِدِينِهِ مِنَ الْفِتَنِ ) .

وأما إذا لم يخشى الإنسان على دينه : فالأفضل الخلطة بالناس ونفعهم وتعليمهم .

وهو مذهب أكثر العلماء .

قال النووي : قوله ﷺ (ثم مؤمن في شعب من الشعاب يعبد ربه ويدع الناس من شره) فيه دليل لمن قال بتفضيل العزلة على

الاختلاط وفي ذلك خلاف مشهور فمذهب الشافعي وأكثر العلماء أن الاختلاط أفضل بشرط رجاء السلامة من الفتن ومذهب

طوائف أن الاعتزال أفضل وأجاب الجمهور عن هذا الحديث بأنه محمول على الاعتزال في زمن الفتن والحروب أو هو فيمن لا

يسلم الناس منه ولا يصبر عليهم أو نحو ذلك من الخصوص وقد كانت الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم وجماهير الصحابة

والتابعين والعلماء والزهاد مختلطين فيحصلون منافع الاختلاط كشهود الجمعة والجماعة والجنازات وعبادة المرضى وحلق الذكر وغير

ذلك. (شرح مسلم)

وقال النووي كما هنا في رياض الصالحين : اعلم أن الاختلاط بالناس على الوجه الذي ذكرته -أي من شهود خيرهم دون

شرهم، وسلامتهم من شره- هو المختار الذي كان عليه رسول الله ﷺ وسائر الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وكذلك الخلفاء

الراشدون ومن بعدهم من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من علماء المسلمين وأخبارهم .

وهو مذهب أكثر التابعين ومن بعدهم ، وبه قال الشافعي وأحمد وأكثر الفقهاء رضي الله عنهم أجمعين .

**فائدة :**

أما نفس المفاضلة بين العزلة والخلطة ، من حيث الأصل ، فلا يطلق فيه قول عام لكل أحد ؛ بل ذلك يختلف باختلاف الأشخاص ، والأزمان ، والبلاد. ... فإذا كان الشخص عالماً يخالط الناس ، ويعلمهم وينصحهم ويصبر على أذاهم ، فالمخالطة في حقه أفضل ممن ليس كذلك. ... وإذا كان الشخص لا علم عنده ، ولا يصبر على أذى الناس له ، فالعزلة أفضل له. وقد يكون في بعض البلاد أو الأزمان : الخلطة أفضل ، إذا كان الغالب على الناس الخير وحسن الخلق. وقد يكون في بلاد أخرى ينتشر الفساد بين الناس، وسوء الخلق، فتكون العزلة أفضل لمن لا يقدر على إنكار المنكر وتغييره ... وهكذا.

**قال الشيخ ابن عثيمين** رحمه الله: العزلة خير إذا كان في الخلطة شر، أما إذا لم يكن في الخلطة شر؛ فالاختلاط بالناس أفضل . **وقال أيضاً :** من كان يخشى على دينه بالاختلاط بالناس : فالأفضل له العزلة. ... ومن لا يخشى : فالأفضل أن يخالط الناس، لقول النبي ﷺ: (المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على آذاهم خير من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على آذاهم). فمثلاً: إذا فسد الزمان ورأيت أن اختلاطك مع الناس لا يزيدك إلا شراً وبعداً من الله ، فعليك بالوحدة ، اعتزل .. ؛ فالمسألة تختلف، العزلة في زمن الفتن والشر والخوف من المعاصي خير من الخلطة ، أما إذا لم يكن الأمر كذلك ، فاختلط مع الناس ، وأمر بالمعروف ، وانه عن المنكر، واصبر على آذاهم وعاشرهم .

**فائدة :**

قال عز وجل ( إِذْ أَوْى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ) .

**قال القرطبي:** هذه الآية صريحة في الفرار بالدين وهجرة الأهل والبنين والقربات والأصدقاء والأوطان والأموال خوف الفتنة وما يلقاه الإنسان من المحنة وقد خرج النبي ﷺ فاراً بدينه وكذلك أصحاب. **قال ابن كثير:** وهذا هو المشروع عند وقوع الفتن في الناس، أن يفر العبد منهم خوفاً على دينه، كما جاء في الحديث: "يوشك أن يكون خيرٌ مال أحدكم غنماً يتبع بها شغف الجبال ومواقع القطر، يفر بدينه من الفتن" ففي هذه الحال تشرع العزلة عن الناس، ولا تشرع فيما عداها، لما يفوت بها من ترك الجماعات والجمع.

**فائدة :**

**قال القاسمي:** وبالجملة فلا تستحب العزلة إلا لمستغرق الأوقات في علم بحيث لو خالطه الناس لضاعت أوقاته أو كثرت آفاته .

**قال شيخ الإسلام ابن تيمية:** فأما الخلوة والعزلة والانفراد المشروع فهو ما كان مأموراً به أمر إيجاب أو استحباب.

**فائدة :**

**قال ابن رجب** رحمه الله ( ... يفر بدينه من الفتن ... ) أي: يهرب خشية على دينه من الوقوع في الفتن؛ فإن من خالط الفتن، وأهل القتال على الملك لم يسلم دينه من الإثم إما بقتل معصوم أو أخذ مال معصوم أو المساعدة على ذلك بقول ونحوه وكذلك لو غلب على الناس من يدعوهم إلى الدخول في كفر أو معصية حسن الفرار منه .

وقد مدح الله من فر بدينه خشية الفتنة عليه فقال -حكاية عن أصحاب الكهف- ( وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يُعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْوَا إِلَى الْكَهْفِ ) .

وفي " الصحيحين " عن حذيفة أن النبي ﷺ ذكر له الفتن فقال له : فما تأمرني يا رسول الله إن أدركني ذلك ؟ قال : " تلزم جماعة المسلمين وإمامهم " قال : فإن لم يكن جماعة ولا إمام ؟ قال : " فاعتزل تلك الفرق كلها ، ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك. "

وقد اعتزل جماعة من أصحابه في الفتن في البوادي.

وقال الإمام أحمد : إذا كانت الفتنة فلا بأس أن يعتزل الرجل حيث شاء، فأما إذا لم يكن فتنة فالأمصار خير .

**فائدة :**

فوائد المخالطة:

**الفائدة الأولى:** التعلم والتعليم، وهو من أعظم الأعمال والقربات، فإن حاجة الناس إلى العلم الشرعي، أعظم من حاجتهم إلى الطعام والشراب. وفي الحديث ( إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِينَ، حَتَّى النَّمْلَةُ فِي جُحْرِهَا، وَحَتَّى الْحُوتُ، لَيُصَلُّونَ عَلَيَّ مَعْلَمِ النَّاسِ الْخَيْرِ ) .

**الفائدة الثانية:** النفع والانتفاع، أما الانتفاع بالناس فبالكسب والمعاملة، والححتاج إلى ذلك مضطر إلى ترك العزلة، وأما النفع فهو أن ينفع الناس إما بماله، أو ببدنه لقضاء حوائجهم، ومن قدر على ذلك فهو أفضل من العزلة.

**الفائدة الثالثة:** التأديب والتأدب، والمراد الارتياض بمقاساة الناس، والمجاهدة في تحمل أذاهم وكسر النفس، وقهر الشهوة؛ وذلك أفضل من العزلة في حق من لم تتهدب أخلاقه، وأما التأديب فهو أن يؤدب غيره.

**الفائدة الرابعة:** الاستئناس والإيناس، وقد يكون مستحبًا كالاستئناس بأهل التقوى، وقد يقصد به ترويح القلوب من كرب الوحدة، وليحرص أن يكون حديثه عند اللقاء في أمور الدين.

**الفائدة الخامسة:** في نيل الثواب وإنالته، أما الأول: فبحضور الجنائز، وعيادة المرضى، وحضور الزواجات والدعوات، ففيها ثواب من جهة إدخال السرور على المؤمن. أما الثاني: فهو أن يفتح بابه للناس ليعزوه، أو يهنتوه، أو يعودوه، فإنهم بذلك ينالون ثوابًا.

**الفائدة السادسة:** التواضع، ولا يقدر على ذلك في الوحدة، فقد يكون الكبر سببًا في اختياره العزلة .

**فائدة :**

**فوائد العزلة والاختلاط:**

**الفائدة الأولى:** الفراغ للعبادة، والاستئناس بمناجاة الله سبحانه، فإن ذلك يستدعي فراغًا ولا فراغ مع المخالطة، فالعزلة وسيلة إلى ذلك.

**الفائدة الثانية:** التخلص بالعزلة عن المعاصي التي يتعرض لها الإنسان غالبًا بالمخالطة وهي أربعة:

**الفائدة الثالثة:** الخلاص من الفتن والخصومات، وصيانة الدين عن الخوض فيها، فإنه كلما تخلو البلاد من العصبية، والخصومات، والمعتزل عنهم سليم. روى البخاري في صحيحه من حديث ابن عمرو رضي الله عنه: أن النبي ﷺ ذكر الفتن ووصفها وقال: «إِذَا رَأَيْتُمُ النَّاسَ قَدْ مَرَجَتْ عُهُودُهُمْ، وَخَفَّتْ أَمَانَتُهُمْ، وَكَانُوا هَكَذَا»، وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ، فَقُلْتُ: مَا تَأْمُرُنِي؟ فَقَالَ: «الزُّمُّ بَيْنَكَ، وَأَمْلِكُ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَخُذْ بِمَا تَعْرِفُ، وَدَعْ مَا تُنْكِرُ، وَعَلَيْكَ بِأَمْرِ خَاصَّةِ نَفْسِكَ، وَدَعْ عَنكَ أَمْرَ الْعَامَّةِ .

**الفائدة الرابعة:** الخلاص من شر الناس، فإنهم يؤذونك مرة بالغبية، ومرة بالنميمة، ومرة بسوء الظن، ومرة بالأطماع الكاذبة، ومن خالط الناس لم ينفك من حاسد، وعدو، وغير ذلك من أنواع الشر التي يلقاها الإنسان من معارفه، وفي العزلة خلاص من ذلك، كما قال بعضهم:

عَدُوُّكَ مِنْ صَدِيقِكَ مُسْتَفَادٌ فَلَا تَسْتَكْتِرَنَّ مِنَ الصِّحَابِ  
فَإِنَّ الدَّاءَ أَكْثَرُ مَا تَرَاهُ يَكُونُ مِنَ الطَّعَامِ أَوْ الشَّرَابِ

وقال عمر رضي الله عنه: في العزلة راحة من خلطاء السوء. وقال رجل لأخيه: أصحبك إلى الحج، فقال: دعنا نعيش في ستر الله، فإننا نخاف أن يرى بعضنا من بعض ما تنماقت عليه. وهذه فائدة أخرى في العزلة، وهي بقاء الستر على الدين والمروءة، وسائر العورات.

**الفائدة الخامسة:** أن ينقطع طمع الناس عنك، وطمعك عنهم، أما طمعهم، فإن رضاهم غاية لا تدرك، فالمنقطع عنهم قاطع لطمعهم في حضور ولائمهم وإملاكاتهم. وأما انقطاع الطمع، فإن من نظر إلى زهرة الدنيا تحرك حرصه، وانبعث بقوة الحرص طمعه، ولا يرى إلا الخيبة في أكثر المطامع فيتأذى. قال تعالى (وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِيَتَّبِعْتَهُمْ فِيهِ وَرِزْقٌ رَّبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ) وفي الحديث ( انظُرُوا إِلَىٰ مَنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ، وَلَا تَنْظُرُوا إِلَىٰ مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ، فَهُوَ أَجْدَرُ أَنْ لَا تَزْدُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ).

**الفائدة السادسة:** الخلاص من مشاهدة الثقلاء الحمقى، ومقاساة أخلاقهم، وإذا تأذى الإنسان بالثقلاء، لم يلبث أن يفتابهم، فإن آذوه بالقدح فيه كافأهم، فأنجر الأمر إلى فساد الدين، وفي العزلة سلامة من ذلك.

**فائدة :**

**قال ابن الجوزي :** كان خيار السلف يؤثرون الوحدة والعزلة عن الناس اشتغالا بالعلم والتعبد إلا أن عزلة القوم لم تقطعهم عن جمعة ولا جماعة ولا عيادة مريض ولا شهود جنازة ولا قيام بحق وإنما هي عزلة عن الشر وأهله مخالطة البطالين وقد لبس إبليس على جماعة من المتصوفة فمنهم من اعتزل في جبل كالرهبان بيوت وحده ويصبح وحده ففاته الجماعة وصلاة الجماعة ومخالطة أهل العلم وعمومهم اعتزل في الأريطة ففاتهم السعي إلى المساجد وتوطنوا على فراش الراحة وتركوا الكسب. " اهـ

**فائدة :**

**الخلاصة :** لتكن مخالطتك للناس فيما يعود عليك بالنفع، فإذا رأيت المخالطة قد تجر إلى ما لا تحمد عاقبته، فحينئذ كن حلس بيتك، والزم العزلة :

**وضابط هذا :** أن تخالط الناس في الواجبات كالجمع والجماعات وفي المستحبات، ولا تخالطهم في المباحات إلا بما تدعو إليه المصلحة، وأما فضول المخالطة فتحرص على التخلص منه لما له من ضرر على دين العبد، هذه هي جادة أهل العلم والفضل المطروقة فالزمها ولا تغل أو تجف فيفوتك من الخير بحسب غلوك أو جفائك .

ولابن القيم -رحمه الله- كلام نفيس في هذا :

**يقول رحمه الله:** إن فضول المخالطة هي الداء العضال الجالب لكل شر، وكم سلبت المخالطة والمعايشة من نعمة، وكم زرعت من عداوة، وكم غرست في القلب من حزازات، تزول الجبال الراسيات وهي في القلوب لا تزول، ففضول المخالطة فيه خسارة الدنيا والآخرة، وإنما ينبغي للعبد أن يأخذ من المخالطة بمقدار الحاجة ويجعل الناس فيها أربعة أقسام متى خلط أحد الأقسام بالآخر ولم يميز بينها دخل عليه الشر.

**أحدها:** من مخالطته كالغذاء لا يستغنى عنه في اليوم والليلة، فإذا أخذ حاجته منه ترك الخلطة، ثم إذا احتاج إليه خالطه هكذا على الدوام، وهذا الضرب أعز من الكبريت الأحمر، وهم العلماء بالله تعالى وأمره ومكايده عدوه وأمراض القلوب وأدويتها الناصحون لله تعالى ولكتابه ولرسوله ولخلقه، فهذا الضرب في مخالطتهم الريح كله.

**القسم الثاني:** من مخالطته كالدواء، يحتاج إليه عند المرض، فما دمت صحيحاً فلا حاجة لك في خلطته، وهم من لا يستغنى عن مخالطتهم في مصلحة المعاش، وقيام ما أنت محتاج إليه من أنواع المعاملات والمشاركات والاستشارة والعلاج للأدواء ونحوها.

**القسم الثالث:** من مخالطته كالداء على اختلاف مراتبه وأنواعه وقوته وضعفه.

**القسم الرابع:** من مخالطته الهلك كله، ومخالطته بمنزلة أكل السم، فإن اتفق لأكله ترياق، وإلا فأحسن الله فيه العزاء، وما أكثر هذا الضرب في الناس، لاكثرهم الله، وهم أهل البدع والضلالة الصادون عن سنة رسول الله الداعون إلى خلافها الذين يصدون عن سبيل الله ويغونها عوجاً .